الخاتمة

قصد الباحث من تلك الدراسة إلقاء الضوء على المدارس الأيوبية في مدينتي حلب والقاهرة وقد خلص إلى ما يلي :

أولا: تعتبر المدارس الإسلامية بمثابة مرحلة متطورة وأخيرة بالنسبة للمراحل التي مرت بها المؤسسات التعليمية التي سبقتها . وأن ذلك قد تم من العصر السلجوقي لمحاربة المذهب الشيعي ونشر المذهب السني ، وقد حققت نجاحا ملحوظا في هذا المجال ، وأن المدارس في مدينة حلب كانت موجودة قبل مدارس القاهرة، وذلك لوقوع مصر تحت الحكم الفاطمي الذين عملوا على نشر مذهبهم من خلال مراكزهم التعليمية الخاصة ، وقد ظهرت المدارس في مصر وبشكل خاص بالإسكندرية في أواخر العصر الفاطمي بشكل خجول .

أما في مدينة حلب ازدهرت المدارس قبل العصر الأيوبي وخاصة العصر الزنكي حيث وجدت المدارس بكثرة وذلك بتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، وكانت معظم هذه المدارس على المذهبين الشافعي والحنفي ، وتميزت في أوقافها السخية والكبيرة أما مدارس مصر في العصر الفاطمي التي بنيت بالإسكندرية كانت على المذهب المالكي ، ولكن هذه المدارس كانت مقدمات لبناء المدارس في مصر التي جاءت على يد صلاح الدين الأيوبي عندما تولى الوزارة في الدولة الفاطمية ، وكذلك دلت على بداية النهوض للمذهب السني على حساب المذهب الاسماعيلي الشيعي الذي تلاش في مصر بعد استلام الأيوبيون الأمر فيها.

ثانيا: أن الانتشار الحقيقي للمدارس بمصر ، قد تم على أيدي الأيوبيين ، وقد تجلى ذلك منذ تسلم صلاح الدين الأيوبي لوزارة العاضد سنة 565هـ/1169م ، فقد أنشأ ولأول مرة في حاضرة الخلافة الفاطمية مدرستين إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية، وبعد زوال الدولة الفاطمية بدأ صلاح الدين يكثر من بناء المدارس وتبعه في ذلك خلفاؤه من البيت

obeikandl.com

الأيوبي ، وكذلك أسهم الأمراء والأميرات والعلماء والتجار في بناء المدارس ، الأمر نفسه في مدينة حلب حيث كثرة المدارس في العصر الأيوبي ، وقام الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء المدارس وتبعه خلفائه من البيت الأيوبي كما أسهم العلماء والأمراء في هذا المجال ، ولاحظنا كثرة أوقاف هذه المدارس في المدينتين المذكورتين.

ثالثا: أن المدارس في العصر الأيوبي في مدينتي حلب والقاهرة قد دلت على مكانة كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة بين المصريين والحلبيين ، فقد كانت المدارس الشافعية بالقاهرة أكثر من المدارس الحنفية والمالكية ، فقد عاد المذهب الشافعي في ذلك العصر ليحتل مكان الصدارة بمصر بين مذاهب أهل السنة الأربعة ساعد على ذلك عدة عوامل من أهمها:

1- النجاح الذي حققه المذهب الشافعي في التصدي للتحديات الشيعية في بلدان المشرق الإسلامي، لذا فقد لاحظنا أن المدارس الأولى في الإسلام قد أسست لتدريس ذلك المذهب .

2- كان لوجود قبر الإمام الشافعي بمصر اثر كبير لكي يحتل ذلك المذهب مكان الصدارة بين المصريين ، لذا فإننا قد وجدنا أن صلاح الدين قد أهتم بأن يكون بجوار ذلك القبر مدرسة كبرى لتدريس ذلك الفقه.

3- إن صلاح الدين وأفراد دولته كانوا على المذهب السني ، كل هذه الأسباب أدت إلى اصطباغ السياسة الأيوبية بذلك المذهب طوال عهدها وذلك على الرغم من الحرية المذهبية التي تمتع بها أصحاب المذاهب الأخرى في دولة صلاح الدين وخلفاؤه من بعده.

وكان هناك مدارس للحنفية في حلب والقاهرة بينما لم يوجد في حلب مدرسة للمالكية وجد في مدينة القاهرة أربع مدارس للمالكية راجع ذلك لكثرة المغاربة في القاهرة واعتناق المغاربة لهذا المذهب وانتشاره في المغرب لوقوع القاهرة على طريق الحج المغربي ، بالإضافة إلى ذلك قلة المدارس الحنبلية أو انعدامها باستثناء مدرسة واحدة بمدينة القاهرة ، وكذلك

وجدت في حلب والقاهرة مدارس لتدريس مذهبين واختصت القاهرة بوجود مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة وهي المدرسة الصالحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب.

رابعا: إن المدارس في حلب والقاهرة كانت منظمة من الناحية المالية والإدارية على درجة عالية ومتكافئة مع المدارس النظامية التي وجدت قبلها ، حيث ساهم في هذه النهضة الحضارية كل من الحكام والأمراء والعلماء والتجار وكانت المدارس الأيوبية تتمتع بتنظيم جيد من حيث الأوقاف ومن حيث الموظفين الذين كانوا يقومون على إدارتها ، فقد وجد المدرس والمعيد والإمام والمقرئ ..... حتى الخدم ، وكان ينتظم فيها طلاب منتظمون وطلاب غير منتظمون بالإضافة إلى طلاب الرحلات العلمية أو الغرباء ، وقد وجدت مساكن خاصة بهم توفر لهم جميع الخدمات اللازمة ، بحيث أن المدارس كانت مؤهلة تمام التأهيل لأداء الدور التعليمي لها.

خامسا: إن المدارس الأيوبية في مدينتي حلب والقاهرة قد ساعدت على ازدهار و إحياء علوم أهل السنة ، حيث كانت العلوم التي تدرس في هذه المدارس هي العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها ، وقد نبغ في هذه العلوم عدد كبير من العلماء في حلب والقاهرة وأغنوا المكتبة العربية بمؤلفاتهم المتنوعة سواء بالفقه أو الحديث أو غيره .

سادسا: كان لتلك المدارس وعلمائها دور سياسي في الدولة الأيوبية فقد لعبت هذه المدارس دورا كبيرا في محاربة المذهب الشيعي ونشر المذهب السني ، بالإضافة إلى دور علماء هذه المدارس في الحياة السياسية فقد عمل أغلبهم كمستشارين أو وزراء أو رسل إلى الدولة الإسلامية و إلى الخليفة العباسي ببغداد للحكام الأيوبيين في حلب والقاهرة ، واشتهر في هذا المجال أسر بكاملها مثل: أسرة شيخ الشيوخ في مصر وآل العديم في حلب وغيرهم .

سابعا: ساهمت هذه المدارس مساهمة فعالة في ازدهار الحياة الثقافية والعلمية في حلب والقاهرة وذلك من خلال فك العزلة الثقافية التي فرضها الفاطميون على مصر إبان حكمهم

لها، فقد أصبحت مدينة القاهرة قبلة لكبار العلماء المسلمين من مختلف البلاد الإسلامية ، سافروا إليها من أجل الاستماع إلى علمائها والتدريس بمدارسها، وكان لحكام حلب الأيوبيين دور كبير في ذلك من خلال تشجيعهم للعلماء للقدوم إلى مدينتهم من أجل التعليم فيها ، وكذلك كان للمدارس أثر علمي من خلال نشر التعليم بين مختلف طبقات المجتمع وخاصة الطبقة الفقيرة ، لأن المدارس كانت تعطي مرتبا لطلاب ، فلم يعد التعليم حكرا على الأغنياء بل تساوى فيه الجميع.

ثامنا: كان للمدار س الأيوبية وعلمائها دور اجتماعي واقتصادي ، فقد قام علماء المدارس بالدفاع عن الرعية أمام الحكام والأمراء ، وكذلك أمنت المدارس مدخول لبعض العائلات فقد كان الطالب يأخذ مرتبا من المدرسة وكان يعين أهله بقسم من هذا المرتب ، وكذلك عملت المدارس على نشر التعليم بين طبقات المجتمع كافة ، و أمنت وظائف لأفراد المجتمع فقد كانت كل مدرسة تضم عدد من الموظفين فيها، بالإضافة لذلك فقد كان خريجي المدارس أولى بالوظائف الحكومية، وساهمت المدارس بكثرة الغرباء في المدن الموجودة بها وقد أثر هذا بطبيعة الحال على الحياة الاقتصادية إيجابا، وساهمت في تمكين اللغة العربية بين الغرباء من البلدان الإسلامية الغير عربية.

تاسعا: ساهمت المدارس في تخطيط وتنظيم المدن وشوارعها ، وساعدت على ازدهار الفنون المعمارية والزخرفية ، وتمثل ذلك في مدارس حلب والقاهرة من خلال اتساع بعضها لتضم مذهبين أو أكثر ، وملحقات هذه المدارس مثل مساكن للطلبة ، تطور فن عمارة المدارس فأصبح للمدارس المصرية سمات خاصة بها مثل: أنها بنيت بالحجارة المصقولة واستعملت الفقرات المزررة في العقود المستقيمة والمنبطحة بكثرة، واستعملت الزخارف الجصية المتطورة عن الزخارف الفاطمية، واستخدم الرخام في كسوة المحاريب، والفسيفساء أيضا. كما في المدارس السورية، واستخدم الخط النسخي في الكتابة على اللوحات المنقوشة

على المباني ونراها على بوابة المدارس الصالحية ، وهي بهذا تتفق مع المدارس السورية ، واستخدمت الدخلات في الواجهات.

استعملت المآذن المكونة من طوابق ، وكانت طريقة بنائها استمرارا لمآذن العهد الفاطمي وللمدارس السورية نموذج خاص بها مثل: ذات شكل مستطيل متجه نحو القبلية تماما، وأنها ذات حجم صغير بشكل عام. يعود ذلك لأسباب منها : وجدت كي تخدم مذهبا واحدا، وبنيت بالعشرات فلم يكن من الضروري أن تكون كبيرة، بيت الصلاة فيها يتكون من قاعة مستطيلة تشغل عادة الجانب الجنوبي من الصحن وتنفتح معظمها بعقد ثلاثي، الأوسط أكبرها، أو في عقد خماسي ، وسقفت بيوت الصلاة في مدارس حلب بقبة تقوم على مربعة وترتكز على قبوين يقعان إلى جانبيها ، وتمتاز قبة بيت الصلاة عن بقية قباب المدرسة عادة بارتفاعها واختلاف طرازها، ولم تضم على الأغلب مآذن ، و إن وجدت فيها فتعود إلى عهود لاحقة.هناك ضريح متصل مع المدرسة منذ تاريخ مبكر . كذلك استعملت المحاريب الرخامية الملونة ، والبوابات المقرنصة.

اختلفت المدارس السورية عن المدارس المصرية ببعض الصفات مثل : اهتمت المدارس المصرية بزخرفة الواجهات، وكذلك وجود المآذن فيها، وكانت القبلية بالمدارس السورية مستطيلة تمتد على طول الضلع الجنوبي من الباحة ، أما في المدارس المصرية كانت القبلية على شكل إيوان . لم تضم الصالحية مدفنا ، ثم وضع فيها ضريح الملك الصالح مكان المدرسة المالكية. ولا نستطيع أن نؤكد أو ننفي وجود المدفن في المدارس الأيوبية المصرية الأخرى.

تشابهت المدارس السورية والمدارس المصرية ببعض الصفات أهمها: أن جدار القبلة هو العامل الرئيسي في تخطيط هذه المدارس جميعا، وأن حدودها الداخلية تنتظم في مستطيل أو مربع قائم على خط هذا الجدار، وفي كل مدرسة بيتا للصلاة ن وان هذا البيت يتصدر بناءها ،

وانه أكثر قاعاتها أهمية واتساعا، ومن الصفات المشتركة بين المدارس أيضا البهو، ويوجد في كل المدارس بهوا مكشوفا فسيحا، مربعا أو مستطيلا أو قريبا من ذلك .يوجد في كل المدارس بيوتا للطلاب عبارة عن غرف صغيرة الحجم، بعضها من طابق واحد ومعظمها من طابقين، وعددها يتفاوت من مدرسة لأخرى، ولكنها يتناسب مع حجمها ومع سعة بهوها وبيت صلاتها.

كان يوجد أيضا في هذه المدارس قاعات للكتب وقاعات لتذكير الدروس وتناول الطعام وجلوس المدرسين والنظار والمشرفين والكتبة ، وتضم كل مدرسةٍ بناء في كل جانب من جوانبها تصلح لمطبخ ومخبز وحمام وغير ذلك من المنافع العامة.ويوجد في معظم المدارس أيضا ضريا أو أكثر، وان موضع هذا الضريح وبناءه لا يقتطع جزءا هاما من بناء المدرسة، وإنما روعي أن ينحصر في ركن من الأركان، وان يحتل من البناء قدر ما تحتله قاعة من قاعات المدرسة، وأصبحت هذه الظاهرة منتشرة في جميع البلاد الإسلامية حتى ما كادت تبنى مدرسة إلا وأعد فيها مكان ضريح لمنشئها أو لأحد أفراد أسرته،استعمال الحجارة المنحوتة جيدا بالبناء ، واستخدام الكتابات النسخية في المداخل ، واستخدام الرخام في زخرفة المحاريب.